

نهاية السلاطين المماليك في مصر

بعض أجزاء هذا الموضوع معروف جيد المعرفة ، وبعض آخر منه جديد منبعه مؤلفات حديثة لمؤلفين أخصائيين ، في نواح معينة من تاريخ الشرق الأوسط ؛ ومن أولئك وتك وشي وستربلنج وكاهن ولين وفشر . وهذا الحديد هو معالجة الوضع التاريخي - والوضع الجغرافي كذلك - لنهاية سلطنة المماليك ، في مصر والشام ، وسائر ممتلكات هذه السلطنة بالشرق الأوسط ، أى من الناحية العالمية ، أو بعبارة أخرى - الناحية الدولية - من باب التجوز في استعمال مصطلح حديث لشرح مرحلة صاخبة من مراحل الحوادث الخاتمة على العصور الوسطى ، قبل أن يكون للدولة معنى في مصطلح التاريخ والسياسة . ذلك أن انتهاء سلطنة المماليك باستيلاء العثمانيين على الشام ومصر ، وسائر الممتلكات السلطانية المملوكية أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، حدثٌ جيوبوليتيكي ذو أهميات بالغة في السياسة الجغرافية ، وهذا قبل أن يكون للسياسة الجغرافية معنى في مصطلح التاريخ والسياسة . وأول هذه الأهميات أن انتصار العثمانيين على المماليك نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية لأول مرة في التاريخ من غرب آسيا وشمال أفريقيا إلى ركن استراتيجي عظيم ، بأقصى الجنوب الشرقى من أوربا - أى مدينة القسطنطينية - وهى ركن جعلت منه الدولة البيزنطية عاصمة لها ، ومركزاً لحضارتها وثقافتها ، ورمزاً لسلطتها الأرثوذكسية على معظم بلاد المسيحية الشرقية ، وذلك لمدة ألف سنة تقريباً ، قبل أن يحلّ العثمانيون بالقسطنطينية محلّ البيزنطيين . ثم إن استيلاء العثمانيين على القاهرة ، وهذا هو موضع الأهمية الثانية ، لم يغير من محور الارتكاز في الدولة الإسلامية فحسب ، بل نقل المذهب الفقهي الرسمي في المجتمع المصرى من الشافعية إلى الحنفية ، وهذا كذلك حدثٌ عميق الأثر في جوف المجتمع المصرى ، وفي الحركة العلمية في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ولا سيما العراق ، بعد أن

صار العراق كذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وثمة أهمية ثالثة أن مطالع القرن السادس عشر الميلادى فى الشرق الأوسط كشفت عن تنافس عنيف بين السنة والشيعة من أجل السيادة الإسلامية العليا ، فى سلسلة حروب دامية بين العثمانيين والصفويين فى إيران . واعتقدت سلطنة المماليك أنها سوف تفيد من هذه الحروب شيئاً ، لأنها ذات مصلحة كبيرة فى مسألة السيادة الإسلامية العليا ، بوجود الخلافة العباسية بالقاهرة ، أو فى قوص ببطن الصعيد ، منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . غير أن سلطنة المماليك لم تفد من هذه الحروب ، ولم ينلها من مراحل المنافسة العثمانية الصفوية سوى ذهابها هى من مسارح التاريخ إلى كتبه ، وأخيلة المؤرخين .

لم يقع ذلك إلا سنة ١٥١٧ م ، أى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . غير أن المتتبع لحوادث الشرق الأوسط من أوائل القرن الخامس عشر إلى أواسطه لا يستطيع أن يجد فيها ما يدل على احتمال وقوع هذا الأمر الفاصل فى التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، ولم يدُر فى خلد سلاطين المماليك أنفسهم أن العثمانيين بعد احتلالهم البلقان ودويلات آسيا الصغرى ، سوف يمدون أبصارهم نحو السلطنة المملوكية المهيبة الجناح ، ونحو غيرها من البلاد الإسلامية ، ليكون لهم السلطان الفعلى فى العالم الإسلامى كله ، بعد أن وسعوا رقعته فى شرق أوربا ، وبعد أن جعلوا من العاصمة الأرثوذكسية المسيحية عاصمة للمسلمين . ولم يكن باستطاعة سلاطين المماليك أن يروا شيئاً من ذلك قبل وقوعه ، بل كثيراً ما احتفل أولئك السلاطين بالقاهرة — حتى سنة ١٤٦١ م على الأقل — بانتصارات الدولة العثمانية أينما تكون ، كأنما هى انتصاراتهم . ودأب المؤرخون المصريون المعاصرون على إطرء كل سلطان من سلاطين ” ابن عثمان “ عند وفاته ، أو الإشادة بفاخر أعماله الحربية وغير الحربية مدة حياته ، فى أسلوبهم الطافح بالمحسنات اللفظية من بديع وبيان ، مما يشجى الأديب ، ويستريح إليه الواعظ ، ويتملح به المؤرخ الذى لا يرى التاريخ إلا خليطاً من الأدب والوعظ والأخبار . ثم إذا اعتلى العرش فى إحدى الدولتين المملوكية والعثمانية سلطان جديد — فى القاهرة ، أو فى بروصة حيث أقام العثمانيون عاصمتهم

قبل إقامتها في أدرنة ثم القسطنطينية فيما بعد - تبادلت العاصمتان المملوكية والعثمانية رسائل التهنة والتبريك ، وإذا اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح قريب - أو بعيد - امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة ، مثلما حدث حين سقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين على عهد السلطان محمد الثاني ، وأصبحت منذئذ عاصمة إمبراطوريتهم الإسلامية التركية، في أوروبا وآسيا وأفريقيا .

وبقيت الصداقة متبادلة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ما بقيت أطرافهما ومنافعهما متباعدة، في مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام الاقتصادي ، أو السياسى . ثم أخذت هذه الصداقة تتحول إلى مغايرة وتحاسد من بعد سنة ١٤٦١ م ، ثم إلى مباغضة ومعاداة لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة سنة ١٤٨٣ م . وظلت هذه الحرب المملوكية العثمانية ثمانية أعوام حسوماً طويلة ، ولم يكن السلام الذى أعقب هذه الحرب وامتد من سنة ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م ، سوى نفحة من نفحات الهدوء قبل العاصفة ، حتى إذا هبت هذه العاصفة هبوا بها المنتظر اكتسحت الممالك وإمبراطوريتهم وسلطنتهم ، وأزالهم وأزالتها من الوجود السياسى .

أما النذير الأول لهذه العاصفة الكاسحة ، فهو ما وصل إلى القاهرة أواخر سنة ١٥١٥ م ، من أنباء تخبر بأن السلطان سليما يعمل جاداً في إعداد دار الصناعة العثمانية بالقرن الذهبى لبناء أسطول جديد ، وأنه يتجهز للهجوم على السلطنة المملوكية في البر والبحر . ولم يكذب السلطان قانصوه الغورى هذه الأنباء التى يبدو أنها جاءت مصدقة لما عنده من معلومات سابقة ، فأخذ من ناحيته يستعد للحرب حتى جعل القاهرة تموج بالاستعداد ، وبات الناس ولا حديث لهم في طول البلاد وعرضها إلا اقتراب يوم الفصل بين السلطان المملوكى وابن عثمان ، على قول المعاصرين .

هذا مجمل ما كان من تطور العلاقات بين سلطنتى الممالك والعثمانيين ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن التالى له . أما تفصيل هذا التطور، فيتضح منه أنه لم يكن للاصطدام بين الدولتين بدءاً - إن عاجلاً

أو آجلا - وذلك على الرغم مما قام بينهما من علاقات المودة والوثام زمناً غير قصير . ففي عهد السلطان برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء ، بفضل عداوة شاه رخ بن تيمورلنك لكل من برسباى ومراد الثانى ، وابنه محمد الأول من قبل . وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ م ، يحملون تهنئة السلطان العثمانى باعتلاء برسباى عرش السلطنة المملوكية فى العام السابق ، واغتبط برسباى بمقدمهم وبما أحضره معهم من هدايا ثمينة ، ردّ عليها بأتمن منها حسبما يتطلبه الآيين المملوكى . لكن هذه الهدايا لم تصل إلى ابن عثمان ، إذ وقعت فى أيدي المتجربة فى البحر الأبيض من أهل قبرص ، وأخوانهم فى القرصنة وقتذاك . غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراداً الثانى أن يبعث سنة ١٤٢٦ م إلى برسباى هدايا فخمة بحبة رسل عثمانيين مرة أخرى ، من باب التهئة على ما أحرزت حملتان مملوكيتان من نصر فى جزيرة قبرص . وأقام أولئك الرسل بالقاهرة حتى عادت حملة مملوكية ثالثة من قبرص سنة ١٤٢٧ م ، مكلفة بآيات النصر ، وفى ركايبها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه ، وهو جانوس الثانى لوزنيان . وعندما جىء بهذا الملك عارى الرأس مكبلا بالسلاسل ، كانت حضرة السلطان بالقلعة مزدانة بأولئك الرسل العثمانيين ، وغيرهم من القصاد الذين صادف وجودهم بالقاهرة ، وبذا شهد القريب والبعيد ما فعلت بسالة الجنود المملوكية خدمة للإسلام . ولعلّ الغيرة التى أثارها هذا المشهد هى التى أدت بالسلطان مراد الثانى أن يرسل إلى برسباى سنة ١٤٢٨ م خمسين أسيراً مسيحياً ، بعد استيلائه على إحدى الإمارات البلقانية التى سمى أهلها باسم الأنكيروز . وفى سنة ١٤٣٣ م ، وفد على برسباى بحلب اثنان من أبناء أخى مراد الثانى ، أحدهما صبي اسمه سليمان ، والآخر صبية اسمها شاه زاده ، فأنزلهما السلطان منزلاً حسناً ، واصطحبهما معه إلى القاهرة ، وأسكنهما الدور السلطانية بالقلعة ، وأجرى عليهما الأرزاق اللائقة . وترك السلطان مراد الثانى أمر الصبيين إلى صديقه برسباى ، واطمأن إلى إقامتهما عنده بالقاهرة ، ولا سيما بعد أن علم أن برسباى خطب شاه زاده ليتزوج منها عند بلوغها سنّ الزواج ، وأن سليمان أخاها التحق

بحاشية يوسف بن برسباى. ثم تزوج برسباى من شاه زاده الصغيرة سنة ١٤٣٦ ،
وغدا مراد الثانى آمنّا ، بدليل ما أرسل حين ذاك من هدايا سنّية لنسيبه برسباى .
ثم جاء ارتقاء جقمق عرش السلطنة المملوكية (١٤٣٨ - ١٤٥٣ م)
عاملاً إضافياً فى ازدياد الصداقة بين المماليك والعثمانيين ، ففضلاً عما اشتهر
به السلطان الجديد من الدين واللين نحو جميع إخوانه من ملوك المسلمين ،
فإنه أثار إعجاب مراد الثانى بصرامته وصلابته فى أمور الشرع الإسلامى ،
كما أثار محبته بالزواج من شاه زاده بعد وفاة زوجها الأول ، والحفاظ على أخيها
سليمان بالقاهرة بعد وفاة يوسف بن برسباى. ولذا امتلأت رسالة التهئة بالسلطنة ،
وهى التى بعث بها مراد الثانى إلى جقمق سنة ١٤٣٩ م ، بعبارات كلها
تبجيل وإجلال ، وفاتت هديته جميع الهدايا الواصلة إلى القاهرة من عند " ابن
عثمان " زمن السلطان برسباى . ومنذئذ توثقت عرى المحبة بين السلطانين ،
ودأب كل منهما على مبادلة صاحبه بنعوت الأخوة ، كما تبودلت الهدايا
الفخمة بين البلاطين . وحينما انتصر العثمانيون سنة ١٤٤٤ م عند مدينة قارنا
ببلغاريا الحالية على جيوش لادسلاس ملك المجر ، وهنيادى نائب ترانسلفانيا ،
أنفذ مراد الثانى عدة من أسرى هذا الانتصار ، ليدل بهم على ضخامة مغنمه
وأسلابه وأنهباه ، وليبرهن للسلطان جقمق على مبلغ ما حقق الإسلام من
فتوح على يد العثمانيين .

وغدا السلطان جقمق موضع إجلال محمد الثانى بعد مراد الثانى ،
بدليل هديته التى أرسلها إلى القاهرة عند اعتلائه الأول للعرش العثمانى
سنة ١٤٤٥ م ، حتى إذا اعتلاه نهائياً سنة ١٤٥١ م بعد وفاة مراد الثانى ،
أسرع جقمق بالرد على هذه الهدية بما هو أحسن منها ، مع وفد خاص للتهئة .
وتوفى جقمق بعد ذلك بستتين ، أى سنة ١٤٥٣ م ، وخلفه إينال على العرش
المملوكى فى شهر مارس من تلك السنة ، وهو الشهر الذى أتم فيه محمد الثانى
معداته لحصار القسطنطينية . ولذا لم يستطع السلطان العثمانى أن يوفد أحداً لتولية
إينال سلطنته إلا بعد سقوط العاصمة البيزنطية فى أيدي العثمانيين . على أن
إينال استقبل رسل محمد الثانى عند وصولهم القاهرة أحسن استقبال ، وأعلن

الفرح لسماعه بسقوط القسطنطينية ، بل أمر فنادى أن تحتفل القاهرة بذلك النبأ العظيم ، فأزينت الأسواق والحارات ، وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن ، ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام . وفي سنة ١٤٥٦ م وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية ثانية ، برسالة تنبيء بانتصار محمد الثاني على الصربيين ، في وقعة نوفوبردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوجوسلافيا الحالية . وتحديث هذه الرسالة بما أفاءت الجراءة العثمانية على الإسلام من نصرميين ، في نثر مسجوع ، تتخلله سطور من القرآن ، وأبيات من شعر المديح والتفاخر ؛ وأرسل إينال ردًا مشابهاً . وقبل أن يتحرك الأمير المملوكى قانى بك ، وهو الذى كلفه إينال أن يحمل هذا الرد إلى البلاط العثمانى — شاع بالقاهرة نبأ بوفاة محمد الثانى ، ثم ظهر كذب النبأ ، فأمر إينال بدق البشائر السلطانية بالقلعة ثلاثة أيام . ثم سافر قانى بك إلى القسطنطينية ، ورجع سنة ١٤٥٧ م محملاً بالهدايا الكثيرة . غير أنه منذ آلت السلطنة سنة ١٤٦١ م إلى خشقدم اليونانى الأصل ، أخذت سحب العلاقات الصافية بين المماليك والعثمانيين تقتسم وتظلم وتحثك بعضها ببعض ، دون أن تدلّ عليها راعدة لبضع سنين . ذلك أن الدولة العثمانية منذ تمت لها السيطرة فى البلقان — بمهادنة إسكندر بك زعيم ألبانيا ، وإتمام الاستيلاء على شبه جزيرة المورة — بدأت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات آسيا الصغرى ، وأهمها إمارتا قرمان ودلغادر التركمانيتان المشمولتان بحماية السلطنة المملوكية ، وعليهما تعتمد السلطنة المملوكية فى شئون الأمن والدفاع فى أطرافها الشمالية . ولذا لم تلبث علامات التنافر بين العثمانيين والمماليك أن وضحت من أجل هاتين الإمارتين ، ولا سيما حين توفى إسحاق أمير قرمان وسليمان بك دلغادر سنة ١٤٦٥ م . ذلك أن الدولة العثمانية نصرت فى كل من الإمارتين شخصاً مخالفاً لمن قامت الدولة المملوكية بنصرته ، وفاز محمد الثانى فى الحالين على خشقدم ، بقيام پير محمد فى إمارة قرمان ، وبداق بك فى إمارة دلغادر ، لا لشيء سوى أنهما من صنائع ابن عثمان . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد الخطير ، بل زاده خطراً أن السلطان العثمانى أوى فى بلاطه كثيراً من رجال الدولة المملوكية

الذين فرّوا إليه استياءً من خشقدم ، وليس عجباً أن يدأب السلطان المملوكى بعد ذلك على مناوأة الحركات العثمانية بالجنوب الشرقى من آسيا الصغرى . ولم يكن قايتباى الذى خلف خشقدم فى السلطنة المملوكية ، سنة ١٤٦٧ م ، أقلّ من سلفه مناوأة ومعارضة للتدخل العثمانيين فى شئون قرمان ودلغادر ، بدليل أن العلاقات بين الدولتين لم تتحسن إلا بعد أن اتفق الطرفان على الكف عن التدخل فى شئون هاتين الإمارتين . وبحسب هذا الاتفاق ظلت السلطنتان المملوكية والعثمانية فى وئام ظاهر ، فعاد محمد الثانى إلى إرسال الرسل إلى القاهرة وأخبار الانتصارات العثمانية فى أوروبا ، كأيام إينال ، ووصل من عنده سنة ١٤٧٠ م رسول يخبر باستيلائه على عدة من الجزر التابعة للجمهورية البندقية بالأرخبيل اليونانى ، وغزو سفنه منطقة فريولى ومناطق أخرى للبنادقة على ساحل البحر الأدرياتي . وبينما تسير الجنود المملوكية بقيادة يشبك الدودار فى طريقها من الشام إلى شمال العراق سنة ١٤٧٣ م ، لحرب أوزون حسن أمير ديار بكر ، جاء رسول عثمانى إلى المعسكر المملوكى يعرض استعداد السلطان محمد الثانى للاشتراك فى تلك الحرب . على أن انتصار الجنود المملوكية على أوزون حسن تمّ وشاعت أنبأؤه فى مصر والشام ، قبل أن يسهم العثمانيون بجيش أو بعض جيش ، مما وعدوا به للمساعدة ضدّ عدوّ ذى خطر على الممالك والعثمانيين ، سواء بسواء . ومع هذا لم يسع قايتباى إلا أن يرسل إلى محمد الثانى مبعوثاً خاصاً يشكره على استعداده لمساعدة الدولة المملوكية ، وهكذا بقيت العلاقات الطيبة قائمة بين السلطنتين ، كما بقيت رسل المودة تتبادل بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى سنة ١٤٨١ م ، وقيام بايزيد الثانى فى السلطنة العثمانية .

لم يكن هنالك ما يدعو إلى الظن بأن العلاقات الطيبة بين السلطنتين توشك على النهاية ، بعد قليل من السنين . غير أنه كان للسلطان بايزيد الثانى أخ صغير اسمه چم ، واعتزم هذا الأخ منازعة بايزيد الثانى على العرش بعد أن أفلت من برائن العملية الدموية (blood bath) التى دأب البلاط العثمانى على إتمامها ، قبيل قيام كل سلطان جديد . وجمع چم جموعاً بغرب (١٤)

آسيا الصغرى لإعلان الخروج على بايزيد الثانى ، ثم ما لبث أن لحقته الهزيمة ، فنجأ بنفسه وأهله إلى مدينة قونية التى عرفته وأحبته منذ ولادته عليها فى سابق السنين ، ولكنها لم تجرأ على نجاته ضد بايزيد الثانى . ثم توجه جم أخيراً إلى القاهرة ، مع أمه وحريمه ، فرحب به قايتباى ، وبالغ فى إكرامه ، وأمده بجميع ما احتاجه من المال لتأدية فريضة الحج ، مما أغضب بايزيد وأثار حفيظته على الدولة المملوكية . وعلى الرغم من خرس المراجع هنا — عن إشارة تساعد على شرح تطور العلاقات المملوكية العثمانية على هذا النحو — فالواضح أن مسألة الأمير جم لم تكن كل ما هنالك من أسباب الجفوة ، بدليل إمعان قايتباى فى معونة هذا الأمير فيما عزم عليه منذ رجوعه من الحج ، إذ زوده بالمال ، وأغراه بمفاوضة بايزيد الثانى فى أمر رجوعه إلى إسطنبول ، بشرط تعيينه سلطاناً على جزء من الدولة العثمانية ، أو مشاركته فى السلطنة دون حاجة إلى تجزئة أو تقسيم . غير أن بايزيد الثانى رفض المساومة فى هذا أو ذاك رفضاً باتاً ، وكتب إن أقصى ما يعد به أخاه جم إذا رجع إلى وطنه أن يعين له راتباً سنوياً لا ثقاً ، وأن يضمن له العيش فى أمان واطمئنان . أما شيعة جم ومؤيدوه بآسيا الصغرى ، فظلوا على إلحاحهم فى تحريضه مرة بعد مرة ليعود إليهم ، وليعلن الحرب على أخيه من قونية أو غيرها من البلاد العثمانية . ونزولاً على إلحاح أولئك المؤيدين رحل جم عن القاهرة أوائل سنة ١٤٨٢ م ، دون أن يأخذ معه أحداً من أهله . وسمح له قايتباى بالرحيل على كره منه ، لأنه آثر بقاءه عنده ليضايق به بايزيد الثانى ، ولذا أذن له بالإقامة ما شاء بحلب حتى يجهز حملته الابتدائية المرجوة ، للزحف بها نحو إمكانيات مساعدته . غير أن هذه الحملة لم تكد تتحرك من حلب حتى باءت بفشل ذريع ، فتركها جم وأبحر إلى جزيرة رودس ، حيث أضافه رئيس الاستبارية (Hospitallers) دوبوسون . ثم تلت هذه التطورات الفجائية مفاوضات بين بايزيد الثانى ودوبوسون ، وتم الاتفاق على أن يدفع السلطان العثمانى للاستبارية مبلغاً قدره خمس وأربعون قطعة ذهبية بندقية سنوياً ، مقابل احتفاظهم على الأمير جم ورقابة حركاته . ولم يلبث دوبوسون أن أرسل جم إلى فرنسا ، ليقم بأحد البيوت

الاستتارية بها ، فوصل إلى فيلا فرانكا ، وظلّ بها حتى أواخر سنة ١٤٨٨ م . ولم يكد بايزيد الثانى يفرغ من أمر أخيه چم على هذا النحو الشائن حتى أخذ يعدّ العدة لحساب السلطنة المملوكية على مؤازرتها للأمير المنكود ، وزاد فى إصراره على حسابها أن قايتباى رفض السماح لبازيد بإصلاح قنوات المياه بشوارع مكة ، وأنه لم يحرك ساكناً لمعاينة جماعة من لصوص ميناء جده ، لنهبهم بعثة هندية تحمل متجراً للسلطان العثمانى ، فضلاً عن خنجر ثمين ، وجملة من طرائف كريمة أخرى . ولذا أعلن بايزيد عزمه على إمداد علاء الدولة أمير دلاغادر الخارج على السلطنة المملوكية وقتذاك ، وأمدّه سنة ١٤٨٣ م بجنود عثمانية استخدمها علاء الدولة إلى جانب جنوده فى الإغارة على نيابة ملطية التابعة للدولة المماليك بآسيا الصغرى . غير أن هزيمة هذه القوات المشتركة على يد المماليك سنة ١٤٨٤ م ، وعودة الجيوش المملوكية إلى قواعدها فى حلب يتلوها رتل من الأعلام العثمانية التى وقعت فى قبضتها ، زادت فى إصرار بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى ، وأرسل إلى علاء الدولة يحثه على مواصلة الحرب ، ويعدّه بالمساعدة اللازمة لذلك من المؤونة والرجال والمال .

أما السلطان قايتباى فأخذ يسعى لترضية بايزيد ، وذلك منذ علم بموقفه من علاء الدولة ، واستشار أمراءه فى أقرب الطرق والمسالك المؤدية إلى تحقيق هذه الترضية ، فقررّ الرأى على إرسال السياسى المملوكى القديم جانى بك حبيب إلى إسطنبول . وحمل حبيب معه إلى بايزيد الثانى هدية فخمة ، ورسالة ودّية ، فضلاً عن الخنجر الهندى الثمين ، وتقليد خليفى ، ورسالة شخصية من عند الخليفة العباسى . غير أن بايزيد رفض المصافاة ، بل أساء استقبال حبيب عامداً ، ولم تلبث جنود عثمانية أن هجمت على الحدود الشامية فى فجأة دون إنذار ، حتى إنها استولت على طرسوس وأذنه ومدن أخرى ، قبل أن يتردّ حبيب إلى القاهرة خائب المسعى . وطير نائب حلب أخبار هذا الهجوم العثمانى إلى قايتباى ، فأنفذ حملة تضم من الجند أكبر عدد مستطاع ، بقيادة الأمير إزبك . وزحفت الحملة المملوكية فى سرعة إلى حيث وصل العثمانيون من الأطراف الشامية ، وأنشبت حرباً عنيفة ظلّ ميزانها مضطرباً بين الجانبين

حتى رجحت كفة المماليك، بعد معركة حامية قرب أذنة . ورجع إزبك إلى القاهرة في موكب طويل من رهوس القتلى من العثمانيين ، بالإضافة إلى عدد كبير من الأسرى ، بينهم القائد العثماني هرسك أحمد ، مكبلاً في أغلال المنتصرين .

غير أن هذه الهزيمة التي لحقت العثمانيين زادت نار العداوة المملوكية العثمانية ضراماً ، إذ أوججت الانتقام في نفس بايزيد الثاني ، وأدت به إلى إعداد حملة كبيرة وصلت أخبارها إلى قايتباي أربعة أشهر قبل وصول إزبك بجنوده المنتصرة إلى القاهرة . ولذا أُرصد قايتباي جميع جهوده لإنفاذ حملة مماثلة للحملة العثمانية ، بل أعلن أنه سوف يقود هذه الحملة بنفسه . وإذا أفرغت مصاريف الحملات السابقة خزانة السلطان ، عمد قايتباي إلى جمع ما سوف يحتاج إليه من الأموال بطرق غير عادية ، فاستخلص من أراضي الأوقاف والأراضي الحرة المملوكة للأفراد دخل شهرين ، وأرغم أولاد الناس (وهم فئة أبناء الأمراء المتوفين ، وعليهم تأدية الخدمة الحربية في الجيش المملوكي مقابل إقطاعاتهم الصغيرة) أن يدفعوا بدل خدماتهم مبالغ معينة ، كما ضرب على اليهود والمسيحيين وكبار التجار من المصريين المسلمين ضرائب استثنائية مختلفة . وبينما هذه الاستعدادات العسكرية تأخذ مجراها ، جاء الخبر إلى القاهرة بأن العثمانيين أخذوا يقرعون أبواب مدينة أذنة مرة أخرى ، ويهجمون على أسوارها من كل ناحية ، وأن مدينة أياص سلمت للجيش العثماني ، دون قتال . غير أن حملة قايتباي كانت على وشك المسير في أهبة واستعداد ، ولذا استطاع السلطان أن ينفذها من القاهرة منتصف مايو سنة ١٤٨٦ م ، بقیة الأمير إزبك ، فجاءت حسب تقدير المعاصرين أكبر حملة برحت الديار المصرية منذ قيام الدولة المملوكية الثانية .

وعلى الرغم من ذلك كله يحتمل أن قايتباي لم يكره وقتذاك أن ينتهي ما بينه وبين بايزيد الثاني إلى صلح مقبول ، بدليل أنه أطلق سراح القائد العثماني هرسك أحمد ، وعدداً من الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، كما أوعز بنشر الأخبار عن اعتزامه القيام بإرجاعهم إلى وطنهم سالمين مكرمين . لكن هذه الحركة وما انطوت عليه من دبلوماسية لم تأت بنتيجة ، لأن قايتباي حاول من ناحية أخرى أن

يتسلم الأمير جيم من ملك فرنسا لويس الثامن ورئيس الاسبتارية دوبوسون ، كى يستخلمه فى الضغط على بايزيد الثانى . ولم ينجح قايتباى فى محاولته هذه ، إذ جاءه رسولٌ من عند ملك فرنسا ، وليس معه سوى هدية فاخرة ، وكان وصول هذا الرسول الفرنسى إلى القاهرة فى يونيه ، سنة ١٤٨٨ م .

وفى ذلك الشهر وردت الأخبار إلى قايتباى من حلب تنبئ بأن العثمانيين على بلدى أذنة وأياس ، وأنهم يقتربون من إسكندرونة ميناء حلب ، فى أسطول عدته ستون سفينة ، ابتغاء النزول فى خليجها بجند يقطعون بها خط السير على إزبك وجيشه . غير أن عاصفة هبت على الخليج ، فأفسدت محاولة العثمانيين ، وبذا استطاع إزبك أن يزحف شمالاً فى غير صعوبة حتى ضرب الحصار على أذنة ، وهى التى احتشدت عندها معظم الجنود العثمانية . وظل ذلك الحصار ثلاثة أشهر حتى سلمت أذنة للمماليك ، بعد أن أخلاها العثمانيون . وعاد إزبك عودة الظافر إلى القاهرة ، فى فبراير سنة ١٤٨٩ م ، وفى ركبته عدد من الأسرى الذى رضوا بعدئذ أن يدخلوا فى خدمة قايتباى ، وتقبلهم السلطان قبولاً حسناً ، وأحلهم القلعة فى ثكنات سماها " العثمانية " ، نكابة فى بايزيد الثانى .

أما بايزيد ، فاعتزم المضى فى هذه الحرب إلى النهاية ، فلم يكد إزبك يبرح الشام إلى مصر حتى تحركت حملة عثمانية ثالثة جنوباً ، صوب الحدود المملوكية بأطراف آسيا الصغرى . ولذا أنفذ قايتباى فرقة لحماية نيابة حلب ، على أن يتلوها بجيش كبير إذا اقتضت الحال . غير أنه لما لا يدعُ مجالاً للشك أن قايتباى ظلّ برغم ذلك كله يعلل النفس بالآمال فى الصلح مع بايزيد الثانى ، لسوء حال الخزانة السلطانية . من الدليل على ذلك السوء ما أفضى به قايتباى حين ألحقت العساكر العائدة من أذنة فى طلب النفقة المعتادة ، إذ قال إن مصاريفه الحربية من سنة ١٤٦٧ م إلى سنة ١٤٨٩ م بلغت ٧,١٦٥,٠٠٠ دينار ، وأن الفرقة التى أنفذها أخيراً لحماية حلب كلفته وحدها ١٥٠,٠٠٠ ديناراً ، حسب تقدير ديوان الجيش . من ذلك يتضح كيف كان وصول رسولٍ عثمانى من قبل داود باشا وزير بايزيد الثانى ، فى مايو سنة ١٤٨٩ م ، مدعاة إلى الأمل فى الصلح . على أن قايتباى لم يشأ أن يقبل ما نصح به هذا

الرسول العثماني من إرسال وفد مملوكي للمفاوضة في إسطنبول ، نظراً لأنه هو الجانب الظاهر ، ولأن مفاتيح القلاع والمعقل التي استولى عليها العثمانيون لا تزال عند السلطان بايزيد الثاني ، ولا سبيل إلى صلح إذا لم يتسلم قايتباي هذه المفاتيح . ورأى قايتباي وقتذاك أن يدعم موقفه من بايزيد بمحاولة جديدة لإعادة الأمير جم إلى القاهرة ، وفافوض من أجل ذلك البابا إنوسنت الثامن الذي تسلم الأمير حديثاً من فرنسا . لكن قايتباي أخفق مثل إخفاقه الأول ، رغم استعداداته لتلبية جميع ما يطلبه البابا ، ولو تعدى ذلك إلى النزول عن بيت المقدس للبابوية ، أو فرنسا .

وكيفما كان الأمر ، فليس من المعروف أن الوزير العثماني داود باشا أعلم السلطان بايزيد الثاني بالشروط التي جعلها قايتباي أساساً للصلح ، وإنما المعروف أن جنوداً عثمانية تجمعت قرب قيصرية الروم بأسيا الصغرى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، وأن علاء الدولة دلغادر أرسل إلى السلطان قايتباي يعيره بوصول فرقة من العثمانيين إلى بلدة كولك على مقربة من الحدود المملوكية . ولذا لم يمض على هذه الأخبار بضعة أسابيع حتى أنفذ قايتباي حملة كبيرة بقيادة الأمير إزبك ، على أن يقوم الأمير أولاً باستطلاع ما تبقى من أمل في الصلح . على أن قايتباي لم يغفل تصميم بايزيد على حرب ثالثة ، رغم ما يبدو من مشورة وزيره داود ، فأعد بالقاهرة جيشاً احتياطياً أعلن فيه على رءوس الأشهاد أنه سوف يقود ذلك الجيش بنفسه إلى الشام ، عند أول إشارة من إزبك بطلب المدد .

أما إزبك فسار بجيشه صوب الشمال ، حتى إذا صار على مقربة من الأطراف المملوكية بعث ماماي الخاصكي إلى معسكر الفرقة العثمانية عند كولك ، لمعرفة ما هنالك من أخبار الصلح . لكن العثمانيين قبضوا على ماماي وسجنوه ، وملّ أربك الانتظار ، فتوجه بجيشه أخيراً صوبهم وأجلاهم عن كولك ، ثم زحف منها نحو قيصرية الروم ، حيث هزم الحامية العثمانية هناك هزيمة منكرة ، وأسر الكثير من قادتها . ثم انتهب إزبك قيصرية نفسها وأحرقها ، وأنزل بكثير من ضياعها وقراها مثلما أنزله بها من التخريب . ثم رجع إزبك بجزء من جيشه

نحو ماوندته دون أن يشتبك في قتال ، وعاد إلى مصر، ودخل القاهرة دخول الظافر المثلث الظفر ، في نوفمبر سنة ١٤٩٠ م .

لم يطمئن قايتباي لتلك النتيجة السريعة الفاجئة ، إذ خشى مما سوف تنهيه هذه الهزيمة الثالثة في السلطان بايزيد الثاني من عزم على الانتقام ، وأوجس مما لدى العثمانيين من موارد عسكرية طائلة ، فعقد مجلساً بقبة يشبك (القبة الفداوية الحالية) في يناير سنة ١٤٩١ م ، وشرح الموقف شرحاً وافياً بقوله للحاضرين : ” إن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة مصر “ حتى ينتقم لشرفه انتقاماً شافياً ، واقترح أن يتأهب للحرب بإعداد الرجال والمال . ولذا طلب قايتباي إلى قضاة القضاة الأربعة أن يوافقوه على جباية أجرة سنة كاملة عن جميع الأوقاف والأموال بالبحر بالقاهرة ومصر ، فوافقوه على جباية أجرة خمسة أشهر فقط ، بالإضافة إلى عدة جبايات أخرى بسائر مصر والشام . وانفض هذا المجلس ، وامتألت القاهرة بأخبار الحرب ، واعتزم السلطان أن يخرج بنفسه على رأس الجيش المملوكي هذه المرة .

وبينا تجرى الألسنة بحديث الحرب المقبلة ولا ريب ، وقع ما لم يكن في الحسبان ، وذلك في أبريل سنة ١٤٩١ م ، حين عاد إلى القاهرة ماماي الخاصكي الذي أرسله إزبك رسولا إلى معسكر العثمانيين قرب قيصرية الروم . وجاء بصحبة ماماي قاضي قضاة بروضة ، وهو الشيخ على چلبى ، يحمل تفويضاً لعقد الصلح ، وبيده مفاتيح القلاع التي اشترط قايتباي إرجاعها إليه قبل أية مفاوضة . على أن قايتباي لم يشأ أن يظهر فرحه بهذا التطور نحو الود والصداقة بين الدولتين العثمانية والمملوكية ، بعد هذه السنوات الحافية ، واكتفى بأن أخذ في إطلاق سراح الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، ولم يدخر وسعاً لترحيلهم إلى بلادهم في أحسن حال . ثم أنفذ قايتباي الأمير چانبلات - وهو الذى أصبح سلطاناً فيما بعد - إلى بايزيد الثانى ليؤكد له عزمه على إنهاء ما بين الدولتين المملوكية والعثمانية من عدااء . أما الشيخ على چلبى فبقى ضيفاً على قايتباي حتى تمّ ترحيل جميع الأسرى العثمانيين ، واتفق الفريقان في تلك الأثناء على شروط الصلح ، ولم يرح الشيخ القاهرة إلاّ أواخر سنة ١٤٩٢ م ، صحبة الأمير

ماماى الخاصكى . ورضى بايزيد الثانى بالصلح وشروطه ، لانصرافه وقتذاك إلى مشروع الاستيلاء على مدينة بلغراد .

وفى غضون سنة ١٤٩٤ م ، ذهب إلى إسطنبول رسول مملوكى من عند السلطان قايتباى ، وهو الشيخ عبد المؤمن الفارسى ، لتمكين حسن العلاقات السائدة بين الدولتين العثمانية والمملوكية بهدية حافلة ، من محتوياتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون . ولم يعد الشيخ عبد المؤمن إلى القاهرة إلا أواخر السنة التالية ، لأنه رافق الرسل العثمانيين إلى مدينة نابلى ، حيث استقبلهم شارل الثامن ملك فرنسا غداة استيلائه على تلك المدينة الإيطالية ، وأخبرهم بوفاة الأمير چم فى منفاه الفرنسى .

ثم توفى قايتباى ، وصارت السلطنة لابنه محمد ، فرعى له بايزيد الثانى صداقة أبيه ، وشمل رسوله خاير بك الذى حمل النبأ بالسلطنة الجديدة إلى إسطنبول بببالغ الحفاوة والإكرام . وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة العظمى التى أدت إلى زوال الدولة المملوكية على يد العثمانيين فيما بعد ، وربما كانت إقامته فى إسطنبول هذه المرة أول عهده بالدور الخائن الذى كلف مصر استقلالها ومركزها فى الشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى كله لعدة قرون .

وقبل أن يبرح خاير بك إسطنبول ، أوائل سنة ١٤٩٨ م ، وصلت أخبار تنبئ بقتل السلطان محمد بن قايتباى على يد فئة من الأمراء المماليك ، بموافقة خاله قانصوه الذى خلفه فى السلطنة باسم قانصوه الأول . ويبدو أن بايزيد علم بهذه الأخبار وخاير بك فى حضرته يستأذنه السفر ، فصرفه فى غير مجاملة كأنما اتهمه بالمشاركة فى مؤامرة القتل ، وهدد بشن الحرب على السلطان الجديد ، لموافقته على قتل ابن صديقه قايتباى . غير أن قانصوه الأول أرسل رسولا لتبرئة نفسه عند بايزيد ، حتى إذا رجع ذلك الرسول إلى القاهرة صيف ١٥٠١ م كان قانصوه الأول مخلوعاً من السلطنة . ثم جاء إلى السلطنة المملوكية چانبلات ، ثم طومان الأول ، ثم قانصوه الغورى ، وكل أولئك فى مدة لا تعدو ثمانية عشر شهراً . لكن شاعت المقادير أن يظل قانصوه الغورى على عرش السلطنة المملوكية مدة خمس عشرة سنة ، وأن تشهد السنوات الأولى من عهده انقلاب

الصدقة العثمانية مرة أخرى إلى عدااء مستحكم الحلقات .
ومن مطالع ذلك الانقلاب أن قاصداً مملوكياً لم يذهب إلى إسطنبول لإعلام
بايزيد الثاني بسلطنة قانصوه الغورى ، وأنه لم يأت أحد من عند بايزيد إلى
القاهرة للتهنئة والتبريك بالسلطنة الجديدة ؛ وهذا وذلك على غير المألوف بين
دولتين صديقتين . ومرجع ذلك - فيما يبدو - فرار الأمير دولتباى نائب الشام
إلى البلاط العثمانى ، عند سماعه بخلع قريبه طومانباى الأول على يد قانصوه
الغورى . على أن الغورى لم يحرك ساكناً فى طلب دولتباى ، مما أثار بعض حفيظة
بايزيد ، بدليل وصول رسول عثمانى إلى القاهرة أواخر سنة ١٥٠٢ م بشكاية من
المتاعب التى يلقتها التجار العثمانيون بالإسكندرية على يد على بن الجلود وكيل
السلطان ، واهتمام الغورى بتلك الشكاية اهتماماً أدى به إلى إقالة وكيله بالشرع ،
وتجريدته مما عداها من الوظائف والأموال ، فضلاً عن ترصية التجار العثمانيين
بإزالة أسباب متاعبهم . وفى مقابل ذلك تسلم الغورى نائبه دولتباى ، وبدأت
العلاقات العثمانية منذئذ إلى نهاية عهد بايزيد الثانى سنة ١٥١٢ م على أحسن
ما تكون من الصفاء ، برغم ما سبق ظهوره فى الأفق السياسى من كدر ، حين
صارت السلطنة إلى قانصوه الغورى .

ثم اعتلى سليم الأول عرش بنى عثمان ، وهو فى السابعة والأربعين من عمره ،
وفى عزمه توسيع الإمبراطورية العثمانية فى الشرق على حساب الدول المجاورة . ولم
يكد ينتهى سليم من بعض المراسيم الدموية التى دأب العثمانيون على تنفيذها ،
بقتل أخويه الكبارين قرقد وأحمد ، وأولادهما وأولاد أخواتهما كذلك تأميناً لعرشه ،
حتى اتجه إلى محاربة إسماعيل الصفوى شاه إيران ، لتصفية ما بين العثمانيين
والصفويين من مختلف المشاكل ، وهى تصفية لا بد منها لاختلاطها بمسائل السنة
والشيعة والسيادة الإسلامية العليا . ووقع المصاف بين العثمانيين والصفويين فى
أغسطس سنة ١٥١٤ م ، عند سهل تشالدران الواقع بين العاصمة تبريز وبحيرة
أرمية ، حيث حطم سليم جيش إسماعيل ، وأعقب انتصاره بالاستيلاء فى العام
التالى على تبريز ، فضلاً عن كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين ، وتبليس
وحصن كيفا ، وديار بكر وأورفه ، وماردين والجزيرة ، وجميع الأراضى الجنوبية حتى

الركة والموصل ، وهى بلاد ذوات علاقات اقتصادية وسياسية قديمة بدولة المماليك . لكن ذلك كله لم يهدم مقاومة الصفويين ، بل ظلت المناوشات بين العثمانيين والصفويين بضع سنين . على أن موضع الأهمية هنا أن هذه الاستيلاءات جعلت العثمانيين قاب قوسين أو أدنى بكثير من أطراف الدولة المملوكية بشرق الشام وغرب الفرات ، وهما ناحيتان هامتان للدولة المماليك فى مصر والشام ، لاعتبارات سياسية واقتصادية ، فضلاً عن اعتبارات دينية .

ثم كان أن قضى سليم ، سنة ١٥١٥ م ، على علاء الدولة دلغادر أمير الدولة الدلغادرية المشمولة بحماية السلطنة المملوكية ، إذ استولى على جميع أراضيه بما فى ذلك عاصمته أبلستين ومرعش وغيرهما من البلاد ، وبات العثمانيون على مقربة من الأطراف المملوكية كذلك من ناحية آسيا الصغرى ، أى أن دولة المماليك أمست معرضة للهجوم من ثلاث جهات . وأحسن السلطان الغورى بالخطر المهدد لإمبراطوريته تهديداً مثلثاً وشيكاً ، على حين كان الشاه إسماعيل يعمل على الثأر من سليم الأول ، ويبحث عن حليف يستعين به ضده بين الدول المسيحية والإسلامية سواء ، حتى وجد من السلطان الغورى استعداداً لمؤازرته فى تحقيق أمنيته ، بناء على كتاب ورد إليه من القاهرة على يد الشيخ الشانجقى العجمى نديم الغورى . وحدث وقتذاك أن أحد أولاد الأمير أحمد أخى سليم ، واسمه قاسم ، هرب إلى حلب بناء على اتفاق — أو غير اتفاق — سابق مع نائبها المملوكى ، فأواه الغورى . ومن ثم انقلبت الصداقة المشوبة بين العثمانيين والمماليك إلى عداوة واضحة ، وأضحى كل من سليم الأول وقانصوه الغورى يتربص بصاحبه الدوائر ، هذا لاستخفافه بالحماية المملوكية على إمارة دلغادر وضمها إلى إملأكه ، دون مجاملة أو اعتبار ، وذاك لعطفه على الشاه إسماعيل وإيوائه أميراً عثمانياً عنده ، برغم ما فى ذلك من تهديد للعرش العثمانى .

ولا أهمية بعد هذا هنا لمناقشة الآراء المختلفة حول تاريخ التفكير العثمانى فى الهجوم على الدولة المملوكية ، بالقياس إلى أهمية الأخبار المتواترة أوائل سنة ١٥١٦م بأن إسطنبول قائمة على قدم وساق ، استعداداً لحرب الصفويين فى البر والبحر . وصدق الناس تلك الأخبار على علاقتها ، ما عدا الغورى الذى زكن بأن دولة

الممالك هي المقصودة بتلك الاستعدادات ، وأن سليما الأول أذاع قصة إزماع الحرب ضدّ الصفويين من، باب التعمية وذو الرمد، فضلا عن الدعاية بأن الدولة العثمانية تعمل دائماً على حرب الشيعة ودولتهم في إيران . ولم يكن الغورى بعيداً عن كبد الحقيقة في زكته وحسابه ، لأنه لا يستقيم عقلاً (ولا بد أن خطر له هذا الخطر) أن يعدّ سليم الأول قوات هائلة في البر والبحر ، وتكون بلاد الصفويين — أو ما تبقى منها — هي المقصودة بتلك الاستعدادات المزدوجة . لذا أخذ الغورى منذ أوائل سنة ١٥١٦ م يعدّ العدة من جانبه ، ففطّق أولاً على تنظيم مشاكلة الداخلية التي نشأت عن ثورة ممالكة السلطانية ، من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء ، بسبب تأخر واتهم . وهال الغورى أن ينغمس ممالكه في الفتنة ، مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى ، بسبب استحوار البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها ، منذ أواخر أيام قايتباى . وضاق الغورى ذرعاً بتلك الفتنة ، حتى أنه هجر الدور السلطانية بالقلعة ، واحتجب بقصر المقياس بالروضة ثلاثة أيام ، ولم يرجع إلى القلعة إلا بعد أن تدخل الأمراء بينه وممالكه ، على قاعدة دفع الرواتب المتأخرة . غير أن الأمور لم تعدل لمصلحة الممالك السلطانية نتيجة ذلك التدخل ، فعمدوا إلى التهديد بالثورة مرة أخرى ، وغضب الغورى من تلك الحركات الصيبانية والعثمانيون على الأبواب ، فدعا إليه أغاوات الطباقي ، وهم رؤساء الثكنات المملوكية بالقلعة ، ووبخهم بقوله ” . . . لا تشتموا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب . . . “ .

وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار إلى القاهرة تنبئُ باعتزام العثمانيين الهجوم على الأطراف المملوكية ، فلم يبق لدى الغورى ألا أن يترضى ممالكه بصرف المتأخر من الرواتب . ومن ثمّ عكف على الاستعداد للنفير العام ، فاستدعى العسكر إلى ديران الجيش ، وفرّق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب ، وأنفذ إلى قلعة قايتباى بالإسكندرية مائتي مكحلة وعدداً كبيراً من المدافع والصوان ، لرمي الأسطول العثماني إذا هو اقترب من الساحل ، ومقاومة الجيوش العثمانية إذا هي استطاعت أن تنزل إلى البر .

وفي السادس من مارس سنة ١٥١٦ م ، وهو الموافق لليوم الأول من صفر من السنة الهجرية (٩٢٤ هـ) ، طلع الخليفة العباسي والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد على العادة ، فطلب إليهم أن يستعدوا للسفر معه على رأس الجيش إلى حلب . ثم أخذ الغوري في استعراض العسكر ، فلم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية ؛ وجمع إليه الأمراء ، فلم يستثن من الخدمة منهم إلا الأقلين من الشيوخ والعواجز . وغادر القاهرة أواخر ذلك الشهر أخو علاء الدولة دلدغادر وأولاده الذين جاءوا إلى مصر في حماية السلطان ، منذ وفاة علاء الدولة ، فتوجهوا إلى بلادهم لجمع العساكر من التركمان ، والانضمام إلى الجيش المملوكي عند وصوله إلى حلب . وقبل رحيل هؤلاء أرسل السلطان إلى مشايخ العربان بأعمال مصر والشام ، ليطلب إليهم المدد من العشير والفرسان للخروج معه . وبينما يستكمل السلطان تلك الإجراءات التي جعلت أحوال القاهرة تبدو في نظر ابن أياس ” مثل يوم القيامة “ ، وصلت رسالة توجب الالتفات من عند خاير بك نائب حلب الذي يرجع اتصاله بالسلطان سليم الأول إلى زمن قبل ذلك لم تستطع تحديده المراجع ، وهو على أية حال ليس أول اتصال من نوعه بين خاير بك والعثمانيين . ومخلص هذه الرسالة أن السلطان مخدوع فيما لديه من الأخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، وأنه ليس ثمة شك (وعند خاير بك الخبر اليقين) أن سلماً الأول يستعد لحرب الشاه إسماعيل الصفوي . وأضاف خاير بك — من باب السبك لأكدوبته الحائرة — وصفاً طويلاً لتاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين ، وذيلته بمعلومات مفصلة عن القوات التي أعدها إسماعيل لدفع الزحف العثماني . لكن الغوري لم ينخدع برسالة خاير بك ، بل استدعى مجلساً حريياً لتقليب الأمر مع أمرائه قبل الشروع في السفر ، وظل المجلس منعقداً منذ الصباح الباكر إلى الظهر ، وانجمع الرأي في وجوب إرسال حملة كبيرة إلى حلب على أية حال ، استعداداً لما عساه أن يكون ، على أن يصحبها السلطان بنفسه ، ويبقى على رأسها المراقبة ما سوف تتمخض عنه الحرب (إن حرب وقعت) بين سليم وإسماعيل ، إذ المعقول المنتظر أن يتحول الظافر فيها إلى الهجوم على الأراضي المملوكية بأطراف الشام . وبعد ذلك بأيام وردت على الغوري رسالة من عند

الأمير سيبأى نائب دمشق تشير بأنه لا حاجة إلى مسير الجيوش المملوكية إلى حلب ، لأن سليماً متجه فعلاً بقواته لمحاربة الشاه إسماعيل ، وهو بلا شك بعيد عن التفكير في الهجوم على الأراضي المملوكية . وسرّ هذه الرسالة أن خاير بك اتصل قبلاً بالأمير الطيب القلب سيبأى ، حتى أقنعه باستحالة تفكير العثمانيين في معاداة المماليك غداة تجهزهم لحرب الصفويين ، فرأى الأمير الأمعة النقوع أن يكتب ما كتب إلى السلطان حرصاً على المصلحة العامة . غير أنه لما كان الغورى سيئ الظن بالأمير سيبأى ظلماً منذ سنين ، أضافت هذه الرسالة إلى ظنه سوءاً على سوء ، كما أكدت شكوكه في نوايا العثمانيين . ولذا لم ينتصف شهر مايو من تلك السنة حتى كانت الجيوش المملوكية على أهبة للخروج إلى الريدانية — بظاهر القاهرة — استعداداً للمسير بقيادة السلطان الغورى إلى الشام .

وقبيل رحيل الغورى إلى الخيم السلطاني بالريدانية ، وصل نديمه العجمي الشانقجي إلى القاهرة ، وأخبر بوصول القيلة التي كلفه السلطان بمرافقتها إلى حلب لاستخدامها في القتال ، ولا بد أنه أخبره كذلك بمصير الكتاب السرى الذي أمره بإيصاله إلى الشاه إسماعيل . غير أن المراجع التي تستمد منها هذه الحقبة من التاريخ المصرى لا تذكر شيئاً عن هذا الكتاب السرى ، أو عن ردّ الصفوى . وإذا كان من المقبول عقلاً أن الغورى وعد إسماعيل في كتابه بالمساعدة إن توجهت الجيوش العثمانية نحو بلاده ، فليس من المعروف ما وعد به الشاه من ناحيته إذا اتجه سليم صوب الأراضي المملوكية ، وهو ما حدث فعلاً ، وذلك دون أن يحرك إسماعيل ساكناً من قريب أو بعيد .

ثم لبث الغورى بالريدانية بضعة أيام على العادة قبل الرحيل ، ووصلته هناك رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب ، ومعها كتاب من السلطان سليم الأول . وجاء في رسالة خاير بك أن رسولاً عثمانياً وفد عليه ونزل في ضيافته انتظاراً لوصول رغبة السلطان إلى المفاوضة في الصلح . واشتمل كتاب سليم الأول على كثير من العبارات التي تكفل إدخال السرور إلى قلب الغورى وأمرائه ، وتبعث في نفوسهم الأمل في السلام ، لو أن الغورى وأمرائه اختاروا أن يكونوا من زمرة البسطاء المجانين . وخلاصة هذا الكتاب العثماني بعد السلام والإكرام ، وذكر

ألقاب السلطان الغورى وتلقيبه بالوالد ، والدعاء له بطول العمر ، أن سليما لم يهجم على أراضى علاء الدولة دلغادر إلا بإذن السلطان ، وأن علاء الدولة أصل النزاع بين بايزيد الثانى وقايتباى ، مما أدى إلى ما وقع بين الدولتين العثمانية والمملوكية من حروب سابقة : وتسببت عنه أضرار كثيرة لبلاد السلطان ، ولذا فإن موته أجدى على السلطان من بقاءه على قيد الحياة . أما على بك دلغادر الذى أقامه سليم بعد علاء الدولة ، فإنه يترك أمر إبقائه أو عزله بين يدى السلطان . وأما تجار الأجلاب المملوكية ، وهم الذين شكوا السلطان الغورى من تعويقهم ببعض بلاد آسيا الصغرى ، فالسلطان سليم لم يعوقهم أو يمسهم بأذى ، وإنما هم الذين تضرروا من التعامل بنقود مصر من الذهب والفضة لفسادها وزيفها ، وأنهم هم الذين رفضوا الذهب بمشترياتهم من الأجلاب إلى القاهرة . ثم ذكر سليم فى كتابه أنه مستعد لإرجاع الأراضى التى أخذها من علاء الدولة ، وأنه يرحب بتلبية جميع ما يطلبه إليه السلطان . غير أن الحوادث دلّت على أن هذه السطور المعسولة لم تكن سوى سلسلة من الأكاذيب التى دبّر نسيجها سليم الأول ، وصنيعته الخاسر خاير بك ، ولم يمض يومان على وصول ذلك الكتاب حتى سار الغورى إلى الشام ، بعد أن خلع على طومانباى الدوادار خلعة النيابة عنه فى السلطنة بالقاهرة ، مدة غيبته .

وعند غزوة علم السلطان لأول مرة بخيانة خاير بك ، فرفض تصديق التهمة ، بل ردّ صاحبها - وهو سيباى - ردّاً جافياً ، لأنه لم ينزل عن التشكك فى إخلاصه . ثم وصل السلطان إلى حلب فى يولييه سنة ١٥١٦ م ، واتخذت الجيوش المملوكية من بيوتها مساكن ضاقت بهم وبالخليبين معاً ، مما كان له أسوأ الأثر فى تطور الحوادث المستقبلية . وجاء إلى معسكر الغورى بحلب رسولان من معسكر سليم الأول بالأبلستين ، وانضمّا إلى الرسول النازل بضيافة خاير بك ، وطلب الجميع المثل بين يدى الغورى للمفاوضة فى الصلح . وكان سليم بالأبلستين منذ الشهر السابق لوصول الغورى إلى حلب ، وأراد المطالبة بحديث الصلح ريثما تنتظم قواته إلى قوات وزيره سنان باشا الصدر الأعظم . ولم يخف ذلك على الغورى ، غير أنه رأى أن يظهر شيئاً من الرغبة فى السلم ، فاكتمى بالتحديث إلى الرسل الثلاثة فى لطف العاتب على مولاهم إنه اعتدى

على منطقة النفوذ المملوكي ، بالاستيلاء على بلاد دلفادر ، وأن الصلح لا بد منه بين الدولتين العثمانية والمملوكية . وأجاب الرسل بأنهم أتوا من قبل السلطان سليم مفوضين لعقد الصلح الذي يرضى عنه السلطان ، والحقيقة أنهم أتوا لحلبك الخطبة التي دبرها سليم ، وهي إحاطة الغوري بجو من السلامة الزائفة ، حتى يأخذه العثمانيون على غرّة . ولذا تطوّر الحديث إلى الكلام في هدف الجيوش العثمانية بعد الأبلستين ، فأكد الرسل للسلطان الغوري أن مولاها لا يريد من الدنيا إلا تدمير قوة الشاه إسماعيل تدميراً نهائياً ، ولا يطلب من السلطان سوى البقاء على الحياض أثناء القتال . لكن الغوري بصر بما في قرارة الحديث من غش وخديعة ، فرأى أن يخلع على الرسل خلعاً سنّية ، وأن يردّهم إلى سلطانهم بكتاب يعرض فيه التوسط لإصلاح الأمر بين إسماعيل وسليم . وأعقب الغوري ذلك بإرسال الأمير مغلباي كاتم السرّ ، ليؤكد للسلطان سليم رغبته في الصلح ، واهتمامه للتوسط بينه وبين إسماعيل . ثم ثنى الغوري بأمر آخر اسمه كرتبای ، وأرسل معه هدية فخمة للسلطان سليم ، كما أوعز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع خطبة الجمعة في المسجد الكبير بحلب حول الأحاديث النبوية التي تحض على عدم النفرة بين المسلمين .

ومع هذا كله استدعى الغوري أمراءه جميعاً ، وحلّفهم على القرآن في حضرة الخليفة العباسي ، بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشرّ من سليم . ثم أمر الغوري باستعراض الجند بكامل عدتهم الحربية ، وأخذ عليهم أغلظ الأيمان والمواثيق على طريقة الممالك ، بأن جعلهم يمشون فرقة بعد فرقة تحت السيوف المعروشة فوق الرؤوس . وخلع الغوري بعد ذلك على قاسم بك ابن الأمير أحمد ، وأعلن حمايته له تحدياً للسلطان سليم . ولم يكن السلطان سليم في تلك المرحلة بحاجة إلى التحدي ، كما يكشف عن موقفه ، إذ وردت الأنباء بعد يوم من رحيل كرتبای بأن سليماً لم يقبل أن يتوسط الغوري بينه وبين الصفوى ، وأنه ألقي القبض على مغلباي ووضع مقيداً في الحديد ، وأنه تحرك بجيشه نحو عينتاب بعد استيلائه على ملطية والبهنسا وكركر . وعلم كرتبای بذلك كله حين وصوله إلى عينتاب ، ورأى طلائع الجيوش العثمانية

وهي تقترب من ضواحيها ، فأسرع راجعاً إلى حلب . أما الغورى فإنه استدعى أمراءه وحلفهم مرة ثانية على الحرب حتى النهاية ، ولم يستطع سيباى أن يحتمل الموقف ، لعلمه أخيراً بأمر خاير بك ، فهجم على خاير بك وأمسك بتلابيبه . وصاح مناشداً الغورى بقوله ” يا مولانا السلطان ، إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال “ . فتدخل جانبرى الغزالي نائب حماة ، وهو شريك خاير بك فى الغدر والخيانة ، ونصح للسلطان بعدم الإصغاء إلى هذه التهم ، لثلا يفت ذلك فى عضد سائر الأمراء . ولم يكن الغورى بحاجة إلى النصيحة ، فإنه لم يعتقد ألبته فى إخلاص سيباى ، وبدا ظل خاير بك حرّاً طليقاً ، ليتم دوره المشين .

وفى تلك الساعات الحرجة وصل مغلباى ” فى حال نحس “ ، على قول ابن إياس ، ” بزبط أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على إكديش هزيل “ . وأخبر مغلباى السلطان الغورى أن سليما رفض الحديث فى الصلح وقال له : ” قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق “ ، وأنه لم يكتف بوضعه فى الحديد فحسب ، كما وصل إلى مسامع السلطان ، بل قصد أن يخلق لحيته ، وقدمه إلى الشنق ثلاث مرات ، لولا شفاعة بعض وزرائه مرة بعد مرة ، ثم حمّله الزيل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، إمعاناً فى الإهانة . وكان الغورى قبل قدوم مغلباى لا يصدق أن رسوله تعرض لأنواع الإخراق على يد سليم ، فلما رآه فى هذه الحال علم أن لا مناص من الحرب ، وأصدر أمره بالزحف . وأول من غادر حلب من الجيوش المملوكية قبائل التركمان بقيادة عبدالرزاق دلغادر الذى أعلنه السلطان أميراً على أبلستين وبلاد دلغادر كلها قبل الرحيل ، ثم تلا ذلك مشاة المماليك ، وتبعها معظم الوحدات الشامية بقيادة الأمراء مقدمى الألوف ، ومنهم سيباى وخاير بك وچان بردى الغزالي . وفى اليوم العشرين من أغسطس سنة ١٥١٦ ، تقدم الغورى على رأس الحلقة السلطانية ، ولحق بالجيوش عند جيلان ، وزحف الجميع صوب قرية زغرغين وتل الفار إلى دابق ، وهى . كذلك قرية من قرى بلدة عزاز . وأخذ الجيش المملوكى يرتب صفوفه ، والسلطان الغورى يصدر أوامره استعداداً للمعركة حتى اليوم الثالث والعشرين

من الشهر . وعند مطلع الفجر من اليوم التالى رؤيت العساكر العثمانية على مسافة من دابق ، وفى مقدمتها عدد من المكاحل محمولة على عجالات تجرها الخند . فلم يؤخذ الغورى على غرة ، بل خرج للقتال ممتطياً فرساً ، وعلى رأسه عمامة خفيفة ، وعلى كتفه عباءة من حرير ، وبيده طَبَّـر . وركب الخليفة عن يمينه فى ملابس مشابهة ، من عمة وعباءة وطَبَّـر ، وعلى رأسه علم الخلافة . ومشى حول السلطان جماعة من الأشراف يحملون على رؤوسهم أربعين مصحفاً فى أكياس من الحرير الأصفر ، ومن ورأهم جماعة من مشايخ الطرق تحف بهم أعلامهم الخاصة . وإلى جانب الخليفة سار الأمير العثمانى قاسم بك تحت علم من الحرير الأحمر ، وعلى مسافة عشرين ذراعاً خلف الغورى رفرف العلم السلطانى ، ومشى تحته مقدم المماليك ، والقضاة الأربعة ، وأمير زردكاش . وكان على رأس الميمنة سيباى الطيّب المفترى عليه ، وعلى رأس الميسرة خاير بك الخائن ؛ وتولى القلب سودون العجمى .

ثم بدأت المعركة بهجوم خاطف قامت به جنود الميمنة والقلب بقيادة سيباى وسودون ضد العثمانيين الزاحفين ، فنزلت بالصفوف العثمانية خسائر عديدة فى الرجال ولا سيما رماة البندق . واستولى المماليك على سبعة أعلام ، وعدد من المكاحل النارية ، حتى إن السلطان سليماً فكر فى التقهقر لتنظيم قواته من جديد . وفى هذه الساعة الحرجة أشاع خاير بك بين المماليك القرانيص — وهم الذين ثبتوا للمكاحل العثمانية حتى استولوا على عدد منها — أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسّر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ، ليجز بهم وحدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك كافياً لتشبيط الهمم . وبينما تعمل هذه المظنة عملها المشؤوم قُتل سيباى وسودون ، فولى جنود الميمنة والقلب الأدبار . وتبع ذلك فرار خاير بك من الميدان ، عملاً باتفاقه السيئ مع السلطان سليم ، إذ تظاهر بالقتال مدة ، ثم تقهقر بجنوده بعد أن أشاع شائعة أخرى ، وهى أن السلطان الغورى مات قتيلًا . وبذا انهارت قوة المماليك ، وتفرقت الجند شذر مذر ، تحت نيران المكاحل العثمانية الباقية . وعبثاً حاول الغورى أن يوقف تيار الفرار ، ونادى فى (١٥)

الجنود المدبرة ” يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة “ ، لكن هيهات أن يسمع له أحد ؛ وسرعان ما وجد نفسه وسط المعركة في فئة قليلة من الحاصكية . ثم استطاع أمير زرد كاش أن يشق طريقه إلى حيث وقف الغورى ، فأخذ العلم السلطانى وطواه وأخفاه ، خشية أن يستولى عليه العثمانيون . ثم تقدم أمير زرد كاش إلى السلطان وقال له ” يا مولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج بنفسك ، وادخل إلى حلب “ . وكان لهذه الكلمات وقع شديد في قلب الغورى ، فأصيب بفالج أبطل جنبه الأيسر وأرخص فيه ، على قول ابن إياس . وطلب السلطان الغورى ماء ، فجاءوه به في كأس ذهبية شرب منها قليلا ، ثم لوى عنان فرسه ليهرب ، وسار بضع خطوات سقط بعدها عن الفرس إلى الأرض ميتاً ، من صدمة الهزيمة .

وسرت أنباء الفاجعة سريان البرق بين العثمانيين ، فتقدموا في سرعة قبل أن يستطيع أحد نقل جثة السلطان إلى مكان أمين ، وقضوا على الجنود الذى ظلوا إلى جانب الغورى حتى اللحظة الأخيرة . ثم تقدم السلطان سليم بجنوده واستولى على معسكر المماليك .

لم يبق لدى المماليك الفارين وقتذاك سوى أن يلتجئوا إلى حلب ، غير أن الحلبين الذين أذاقهم المماليك أنواع الضيق والأذى والقسوة أثناء إقامتهم بحلب ، لم يسمحوا لهم بدخول المدينة ، بل طردوهم عن أبوابها ، ولذا تحولوا صوب دمشق ، فوصلوها حفاة عراة في أسوأ حال ، وظلوا بها أياماً حتى لحقت بهم أمثالهم من الفلول والمناسر المنكوبة . ومن ثم توجهت جموع المماليك المهزومة — ماعدا الأمراء — إلى القاهرة ، فدخلوها أرسالا متقطعة أوائل أكتوبر سنة ١٥١٦ م . وقبل ذلك بشهر تقريباً وصلت أنباء دابق إلى مسامع القاهريين ، وجرت الألسنة بالشائعات والنواب الداهمة ، وأخذ طومانباى نائب الغيبة يتنقل فى الأحياء والحارات لينشر بين الناس شيئاً من الطمأنينة ، ويدعوهم إلى حفظ الأمن والنظام ، كما لو كان سلطاناً . ثم تحققت أخبار مقتل الغورى من أفواه العائدين من دابق ، فبدأ اختيار طومانباى أمراً لا محيص عنه ، واتفق الأمراء الموجودون بالقاهرة على اختياره ، دون أن يفكروا فى سلطنة محمد بن الغورى ، حسبما جرت به سنة المماليك

عند اختيار سلطان جديد . وتمتع طومانباى ثم قبيل على العادة ، ونودى به سلطاناً ، فى ١١ أكتوبر سنة ١٥١٦ م .

وفى صباح اليوم التالى وصل چانبرى الغزالى فى فئة من الأمراء الذين تخلفوا قبلاً بدمشق ، فاستاء لقيام طومانباى فى السلطنة ، وعزم على إتمام الدور الذى بدأه الخائن الأول خاير بك .

وفى هذه الأثناء زحف السلطان سليم جنوباً ، واستولى على كثير من المدن فى غير عناء ، بعد أن شاعت أخبار دابق . فسلمت له حلب دون مقاومة ، وعسكرت جنوده بها ثمانية عشر يوماً فى قوق ميدان ، حيث عسكر الغورى من قبل . ثم استأنف سليم سيره إلى دمشق ، عن طريق حمص وحماة ، فسلمت له دمشق بعد مفاوضة قصيرة قام بها خاير بك نيابة عن العثمانيين . وأقام سليم بدمشق قرابة شهرين ، وأمر ببناء مسجد على قبر الشيخ الصوفى محيى الدين بن العربى ، ولم يترك دمشق حتى أكمله .

وانهالت أخبار هذه الانتصارات على رؤوس أهل القاهرة ، وأرجفت الأنباء يوماً بعد يوم بقرب الزحف العثمانى صوب البلاد المصرية . ورأى طومانباى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بالشام ، قبل أن يصلوا إلى الحدود المصرية . لكنه لم يجد من الروح المعنوية بين الأمراء والجند ما يستعين به على تنفيذ هذه الخطة السريعة الرشيدة ، ولا سيما بعد أن صارت البلاد الشامية حتى دمشق بيد العثمانيين . ولذا لم تتحرك أية حملة حربية من مصر إلا فى الثالث من ديسمبر سنة ١٥١٦ م ، وإلا بعد وصول العثمانيين بقيادة سنان باشا الصدر الأعظم إلى قرب غزة — وكل ذلك بسبب المطالب الباهظة التى أصرّ الجنود المملوكية على إجابتها قبل السفر ، مما أدى إلى التأخر فى المسير من القاهرة ، فضلاً عن قلة العدد الذى استطاع طومانباى ترضيته بالمال . وكان المأمول من تلك الحملة التى جعل طومانباى على رأسها چان بردى الغزالى أن تصل إلى غزة قبل أن تدهمها الطلائع العثمانية ، لكن العثمانيين وصلوا إليها قبله ، واستولوا عليها بين عشية وضحاها . وعرج چانبرى عن غزة ، واتجه شمالاً يريد بذلك سبك دوره فى الخيانة ، فلقى سنان باشا وانهزم منه بعد قتال هين ، قرب بيسان على مقربة من عين جالوت .

وعلم طومانباى بمصير غزة بعد ثلاثة أيام من رحيل جانبرى من القاهرة ، فعزم على الخروج بنفسه لدفع العثمانيين عن مصر ، وأمر فنادى ” أن الزُعر والصبيان والشطار والمغاربة ، وكل من كان مختفٍ على قتل قتيل“ يظهر للاندماج فى جيش السلطان ، أملاً فى تجهيز أكبر عدد من الجند لهذه الحملة النهائية . وفى الثامن من ديسمبر استعرض طومانباى جنود هذه الحملة من المماليك ، ولم يعف سوى فئة قليلة من الطاعنين فى السن ، وتفقد ثلاثين مركبة خشبية تجرها الثيران وعليها رماة البندق ، كما استعرض جمالاً تحمل دروعاً مستحدثة لحماية الرماة الراكبة على ظهورها من نار القذائف العثمانية ، فكان لرؤية تلك المعدات الجديدة أحسن الأثر فى قلوب الجنود .

وبينا تكتمل هذه الجهود الجبارة ، وصل إلى القاهرة رسول على حين غفلة من عند السلطان سليم يخبر برحيله عن دمشق إلى غزة ، ويعرض على طومانباى الصلح بشرط أن يعترف بالتبعية للعثمانيين . وجاء فى رسالة سليم مخاطباً طومانباى ” وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا ، فاضرب السكة فى مصر باسمنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات . وإن لم تدخل تحت طاعتنا أدخل (أنا) إلى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة . . . “ . ويبدو من الحوادث التالية لوصول هذه الرسالة أن طومانباى لم يكره أن يفاوض السلطان سليماً على هذه القاعدة المقترحة ، برغم ما لقيه الرسول العثمانى وأصحابه من سوء المعاملة والإخراق بشوارع القاهرة ، بعد خروجهم من حضرة السلطان بالقلعة ، وبرغم ما امتلأت به أفواه بعض الأمراء — على مسمع من السلطان طومانباى — من عبارات حماسية فارغة جوفاء . وربما قصد طومانباى بذلك المظهر أن يكسب بعض الوقت لإتمام استعداداته للحرب ، أو أنه ضاق بانحطاط الروح المعنوية بين البعض من أمرائه ، على حين نادى البعض الآخر بوجوب الاستعداد للقتال ، فرأى هو أن يتخذ من ذلك الموقف سبيلاً إلى إشاعة الحماسة فى القلوب . ذلك أنه ليس من المعقول أن يكون طومانباى جاداً فى إظهار الميل للصلح ، على حين قامت الاستعدادات للحرب بإشرافه على قدم وساق ، كما أنه ليس من المعقول

أن يوافق طومانباى على قتل الرسول العثماني — وهذا ما حدث فعلا — وفي قلبه ميل إلى الاتفاق على شيء مع السلطان سليم .

أما العجب العجيب هنا ، فهو أن المماليك أظهروا في تلك الأيام العصبية جهلا واستهتارا بخطورة الموقف ، إذ أخذوا في مساومة السلطان حول النفقة المعتادة غداة الخروج للقتال ، ولم يردهم إلى شيء من العقل سوى منظر إخوانهم العائدين بعد هزيمتهم المحزنة شمالى غزة في أسوأ حال إلى القاهرة ، وأواخر ديسمبر . وما ساعد على إثارة الأمراء إلى تقدير خطورة الموقف ، أن أخبار وردت بأن أهل غزة هجموا على الحامية العثمانية هناك ، اعتماداً على أنباء كاذبة تخبر بانتصار المماليك لا هزيمتهم في بيسان ، وأن السلطان سليما انتقم لتلك الفعلة بذبح عدد كبير من الغزيين . ثم وصلت الأخبار بمسير العثمانيين صوب الأراضي المصرية ، فعم الفرع أهل القاهرة ، وخرج طومانباى إلى الريدانية ، وفي نيته السير عنها في سرعة إلى الصالحية ، على أن يستعرض عندها الجند قبل الزحف للملاقاة العثمانيين ، بعيداً عن القاهرة . غير أن الأمراء أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية والتربص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره ، فأخذ في تحصين مراكزه عند هذه الضاحية القريبة كل القرب من القاهرة ، وأمر بحفر خندق على طول الخطوط الأمامية من سبيل علان إلى الجبل الأحمر من ناحية ، وإلى آخر غيطان المطرية من ناحية أخرى . ونصب طومانباى على هذا الخندق عدداً من ” الطوارق والمكاحل المعمرة بالمدافع ” ، على قول ابن إياس ، وصف حوّلها العربات الخشبية التي حملت رماة البندق ، ولا بد أنه رتب القيلة التي بعثها خصيصاً من القاهرة ، وجعلها في مكان صالح للاشتراك في دفع العثمانيين إلى الوراء .

١٥١١ م جاء الخبر إلى الريدانية بأن

وفي يوم السادس

١ ، وهي أول البلاد المصرية .

العثمانيين وصلوا إلى

حتى إذا كان اليوم التاسع

وتابعت الأنباء بزحف

الصالحية، أملاً في مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن الأمراء غلبوه على أمره مرة ثانية، ظناً منهم فيما يبدو أن خندقهم في الريدانية سوف يعصدهم من الهزيمة . ثم ورد الخبر في الثاني والعشرين باستيلاء العثمانيين على بليس والخانكة ، ووصولهم إلى بركة الحاج شمال الريدانية ، فدبت الحركة في العسكر المملوكي ، ونادى السلطان بالنفير استعداداً للقتال . غير أن قتالاً لم يحدث في ذلك اليوم لأسباب يعلمها السلطان سليم ، ولم يعلمها طومانباي إلا صبيحة اليوم التالي ، وهو الثالث والعشرين ، حين رؤيت العساكر العثمانية وهي تتحول عن الريدانية صوب القاهرة ، وحين اضطرت المماليك إلى التحول سريعاً لاحاق بهم . ونشبت بين الفريقين معركة حامية ، اشترك فيها كل من طومانباي وسليم . وثار الغبار حتى عميت الأبصار ، فذبح طومانباي بيده سنان باشا الصدر الأعظم ، وفي ظنه أنه قتل السلطان سليماً الأول . غير أن المعركة انتهت بانسحاب المماليك وفرار طومانباي ، بعد أن بقي في الميدان حتى النهاية . ثم إنه لم يكن ثمّة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جانبردي كان متصلاً بالخائن خاير بك ، ولم يمتنع بإفشاء الخطة المملوكية عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم ، مما أدى إلى اجتناب العثمانيين تحصينات الريدانية ، بل نجح في إقناع طومانباي بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر في الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين .

هذه هي وقعة الريدانية التي قررت مصير الإمبراطورية المملوكية تقريراً ، وليس يوجد في قصة النهب والسلب ، وما إلى ذلك من الحوادث التي اقترنت بدخول العثمانيين القاهرة بعد ساعات من هذه الوقعة ، ما يستحق الذكر ، إلا دفاع طومانباي وكفاحه ضده المصير المحتوم . غير أن
 ١ عن أن يقوم بشيء
 ل نفسه ، أو لتخفيف الوطأة الع
 رحمة العثمانيين ، بل لم يبق
 السلاطين من جنس

من الشاميين المصريين ، ولا سيما البدو من العربان الذين لم يكن بينهم وبين الدولة المملوكية كلها منذ قيامها في مصر سوى حب مفقود . ومع هذا كله لم يتطرق البأس إلى قلب طومانباى ، بل ظل يقارع المتقاعير ، وتواصى بالصبر والشجاعة ، مما جعل أيامه الأخيرة قصة من أروع قصص البطولة في العصور الوسطى .

أما الجيوش العثمانية ، فإنها دخلت القاهرة صحوه يوم الريدانية (الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م) ، دون أن تلقى مقاومة ، ولكنها أعملت في أرجائها السيف والنار والدمار . وبينما تعج الشوارع والدروب والحارات بصخب الجنود ونهاكهم على السلب والنهب في ذلك اليوم ، سمع المصلون خطباء الجمعة يدعون للسلطان العثماني سليم الأول من منابر القاهرة ، حيث ترجم له بعض الخطباء في خطبته ، فقال : ” وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيوشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه .. “ . ومن الواضح أن هذا الدعاء — إن صح جريانه على السنة بعض خطباء هذه الجمعة — اشتمل على ما سوف يقوم به العثمانيون من الفتوحات بعد استيلائهم على مصر والشام ، مما يدل على أنه ربما أوحى به إلى الخطيب للدلالة على ما عزمته السلطنة العثمانية على تنفيذه ، أو أن ابن إياس لم يكتب حوادث الفتح العثماني في تاريخه الكبير إلا بعد سنين .

وفي اليوم الخامس والعشرين من يناير سنة ١٥١٧ م نقل سليم معسكره من شمالي الريدانية إلى جهة بولاق ، مفضلاً إليها على القلعة ، وجعل مركز قيادته قرب الموضع الذي تقوم عليه المطبعة الأميرية في العصر الحاضر . ثم دخل سليم القاهرة في اليوم التالي من باب النصر ، فشق المدينة في موكب حافل يتقدمه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين . وسار الموكب حتى باب زويلة (بوابة المتول الحالية) ، ثم عرج من تحت الربع عائداً إلى بولاق . غير أن طومانباى لم يدع صاحبه طويلاً ، بل بغت المعسكر العثماني ذات ليلة مظلمة ، تمهيداً لمعركة أعد لها ما استطاع أن يجد من بواقي المقاومة المملوكية . لكن سلماً أفسد عليه خطته ، وأخرجه منهزماً فاراً من القاهرة ، في اليوم الحادى والثلاثين ، بعد قتال ظل محتتماً بين الفريقين ثلاثة أيام ؛ وهذه هى وقعة الصليبية . ثم

أعقب العثمانيون هذه الواقعة بحرائق ومذابح هائلة في أنحاء القاهرة ، وهى حرائق ومذابح سماها ابن إياس " المصيبة العظمى " التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان . والتجأ طومانباى إلى البهنسا فى الصعيد ، وأخذ منه التعب كل مأخذ ، ففكر فى الصلح ، وأرسل إلى السلطان سليم يعرض عليه استعدادده للاعتراف بالسيادة العثمانية ، مع دفع الجزية التى يطلبها إليه السلطان ، على شرط أن يجلو العثمانيون عن البلاد حتى الصالحية ، " وإن كنت ما ترضى بذلك اخرج ولا يقينى (كذا) فى بر الجزية ، ويعطى الله النصر لمن يشاء منا " .

ولم يكن السلطان سليم معترضاً على الصلح بهذه الشروط فيما يبدو ، أو أنه أراد—بعد أن استقرّ أخيراً بالقلعة وتحصن بها—أن يمدّ لطومانباى حتى يلقى بنفسه إلى تهلكة . وكيفما تكون الحقيقة ، فإن السلطان سليماً كلف الخليفة والتمتضاة الأربعة أن يذهبوا مع وفد عثمانى برئاسة رسول اسمه مصلح الدين للمفاوضة طومانباى فى الصلح ، وأمدتهم بصورة أمان ومطالعة جاء فيها على لسان سليم إلى طومانباى : " ولا تحسب إنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز . . . ؛ وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين " . غير أن الخليفة لم يشأ أن يسهم فى ذلك السعى ، فأتاب عنه دوا داره للذهاب مع المفاوضين . أما طومانباى فإنه سمح للأمراء بالتغلب عليه فى السلم ، كما تغلبوا عليه قبلاً فى الحرب ، وشككه أحدهم واسمه شادى بك فى نيات سليم ، حتى إنه ترك الأمراء يفعلون ما يشاءون . وترتب على ذلك أن حيل بين المفاوضين وطومانباى ، إذ اعترضتهم طائفة من جنود المماليك ، فقتلت العثمانيين وأخرقت بالدوا دار الخليفة والتمتضاة الأربعة إخفاقاً شنيعاً . وانتقم سليم لتلك الفعلة بقتل عدد من الأمراء الذى سلموا له بالأمان عند دخوله القاهرة ، وأقسم أنه سوف يسير إلى طومانباى ويقتنى أثره ، ولو كان " فى آخر الدنيا " .

ولم ينتظر طومانباى ما سوف يقوم به السلطان سليم بعد وصول أخبار وفد الصلح ، بل تمام نحو الجزيرة كما أنذر إذا فشلت المفاوضات ، فوصلها فى جمع كبير . ووجد طومانباى أن العثمانيين معسكرون عند بركة الحبش فى الجهة المقابلة منها للنيل ، وعلم أنهم يتأهبون للعبور إلى برّ الجزيرة ، فعزم على

إغراق المعادى العثمانية كلها وصلت واحداً منها إلى البرّ ، وأنزل بها خسائر فادحة فعلاً ، حتى أمر سليم بإيقاف العبور . ثم تلا ذلك معركة ترمى فيها القريةقان من صفى النيل بالنبال ورمصاص البنادق . وفوجئ طومانباى أثناء ذلك بهجوم البدو على مؤخرته ، فاضطر إلى التقهقر إلى طريق الأهرام . عند ذلك عبر العثمانيون النيل على جسر من القوارب ، والتقوا أخيراً بجيش طومانباى على ممرية من وردان ، أول إبريل سنة ١٥١٧ م ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ظلت يومين ، وكاد الأمير شادى بك يوقع الهزيمة بفرقة من العثمانيين ويلقى بها إلى الماء ، غير أن هذه المعركة انتهت بانتصار العثمانيين .

وتمكن طومان من الحرب لثالث مرة ، واتمس الحماية لدى شيخ من شيوخ البدو بمدايرية البحيرة الحالية اسمه حسن بن مريم ، لما له عليه من يد بيضاء حين أخرجه من غيابة السجن من الغورى . لكن حسناً هذا جمحد الفضل القديم ، وأخير عن دخيله طومانباى خوفاً من العاقبة ، أكرها في المالك ، ولذا لم يجد طومانباى مفرّاً من التسليم . ووصلت أنباء ذلك إلى أتباعه ففتنوا والأمل في مقاومة العثمانيين ، وتفرقوا بادداً . ثم جىء بطومانباى مترياً في الحايك إلى الحضرة السلطان العثمانية بالحيزة ، فقام له سليم عند دخوله ، وعتب عليه مقاومته الطويلة ” ببعض كلمات “، على قول ابن إياس ، ثم اتهمه بقتل المفاوضين إشارة لما سوف يلقى طومانباى كذلك من القتل . غير أن طومانباى لم يتهادم أمام سليم ، بل ظل رابط الجأش حافظاً لهيبته ، فنفى عن نفسه تهمة الاشتراك فيما وقع للمفاوضين ، وشرح عمالة موقفه في غير خوف أو خشية ، كما تكلم في واجبه الحربى وشرف استئلال بلاده ، حتى ملأ السلطان سليماً إعجاباً به ، وبدلاً للحاضرين كأنما يكاد سليم يأمر بالإبقاء عليه ، أو كما قال ابن إياس . وسرت بين الناس بعد ذلك إشاعة أن السلطان يفكر في أن يأخذ طومانباى معه إلى التسلطنية ، أو يرسله منفيّاً إلى مكة مدة حياته ، لكن خايربك وجانبردى أقنعا السلطان بأنه طالما بقى طومانباى على قيد الحياة ، فسوف يظل الحكم العثمانى بمصر والشام في خطر شديد ، فانصاع سليم لتلك المتالة ، وأمر بإعدام طومانباى .

وفى اليوم الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٥١٧ م — وهو يوم الخميس

تلك السنة ، أخرج طومانباى من سجنه ببرّ إنابة فى حرس عدته أربعمائة من الجنده ورماة النفط ، فحمل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة . وأخبره أحد الجنده صبيحة ذلك اليوم عند باب السجن بقرار السلطان ، فلم يظهر خوفاً أو اهتماماً ، بل سار وسط الحرس رافع الرأس ، وجعل يسلم على الناس طول الطريق ، حتى إذا وصل إلى باب زويلة ، وأنزله الحرس عن القرس ، وأرخص له المشاعلى حبل المشنقة ، دعا طومانباى للدهاء أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثاً ، وبسط يده إلى السماء وقرأ عن نفسه فى صوت مسدود ، وقرأت الناس معه . والتفت طومانباى بعد ذلك إلى المشاعلى وقال له ” اعمل شغلك “ . ثم وضعت الحية فى رقبة طومانباى ، وشُدَّ الحبل ، ولكنه انتطع ، فسقط آخر سلاطين مماليك مصر والشام ميتاً على عتبة باب زويلة . وقيل انتطع به الحبل مرتين ، وهو يهوى إلى الأرض ثم يعلّق حتى مات . وظلت جثة طومانباى معلّقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان قانصوه الغورى لنفسه .

ولابن إياس فى وصف الأيام الأخيرة من حياة طومانباى عبارات ملؤها الحزن على ما صارت إليه مصر من التغير ، بعد ذهاب الدولة المملوكية ومجىء العثمانيين ، على أنه لم ير فى ذلك التغير شيئاً إلا ما جرت به المتادير التى ليس لإنسان عليها سلطان ، وإنما حزّ فى نفسه أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قواه ” أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحامى مُلك مصر الذى افتخر به فرعون . . . “ .

محمد مصطفى زيادة